الاستعارة التمثيلية

أو المجاز المركب كما قال الخطيب القزوينى هى اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلى تشبيه التمثيل للمبالغة فى التشبيه، أى تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبه فى جنس المشبه بهما مبالغة فى التشبيه..»[١].

وقد ألقى الشيخ عبد القاهر الجرجانى على هذه الاستعارة مزيدا من الضوء ومضمون حديثه حولها أنها استعارة صورة مركبة لصورة مركبة أخرى، ومما قاله فى هذا الصدد «.. تقول للرجل يعمل فى غير معمل أراك تنفخ فى غير فحم، وتخط على الماء فتجعله فى ظاهر الأمر كأنه ينفخ ويخط والمعنى على أنك فى فعلك كمن يفعل ذلك...»[٢].

ولذلك قال سعد الدين التفتازنى إن حاصل هذه الاستعارة أن تشبه إحدى الصورتين المنتزعتين من متعدد بالأخرى ثم يدعى أن الصورة المشبهة من جنس الصورة المشبه بها فيطلق على الصورة المشبهة اللفظ الدال بالمطابقة على الصورة المشبه بها[٣].

وكلام السعد واضح الدلالة على أن الاستعارة التمثيلية ما صرح فيها بالمشبه به المركب، وطوى ذكر هيئة المشبه، فتكون الاستعارة التمثيلية من قبيل التصريحية، وقد وجدت فى كلام بعض الباحثين المعاصرين «أن الاستعارة التمثيلية لا تكون إلا تصريحية... صرح فيها بلفظ المشبه به، واستعمل فى المشبه كقول الشماخ أبى سعيد بن ضرار الغطفانى، وهو من الشعراء المخضرمين:

رأيت عرابة الأوسى يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين..»[٤]

---

(١) الإيضاح: ١٤٧ مع (البغية).
(٢) دلائل الإعجاز: ٦٨.
(٣) المطول: ٣٧٩.
(٤) فن الاستعارة: ١٠٣.

ثم أضاف أن التركيب الدال على الهيئة المشبه بها استعير للهيئة المشبه بها على طريق الاستعارة التمثيلية التصريحية[١].

وقد ذكر صاحب لسان العرب صورا من هذه الاستعارة، وكان يصرح أحيانا بأنها استعارة، أو تشبيه يقصد باعتبار الأصل أو نحو ذلك.

وقد جاء تناوله لتلك الاستعارة على عدة صور:

إحداها: أنه كان يصرح بلفظ الاستعارة أو ما اشتق منه، من ذلك ما ذكره من استعارة وضع الكور على ظهر الناقة، وتذليلها بالعمل الدءوب، لإخضاع نفس الإنسان الأبى، وإلانة قناته، وكبح غلوائه فقد قال: «الكور الرحل رحل الناقة كالسرج للفرس... وقول خالد بن زهير الهذلى:

نشأت عسيرا لم تديث عريكتى ولـم يستقر فـوق ظهرى كورها

استعار الكور لتذليل نفسه، إذ كان الكور مما يذلل به البعير ويوطأ ولا كور هنالك»[٢].

فنجده قد صرح بالفعل (استعار) فى قوله استعار- أى الشاعر - الكور لتذليل نفسه، ولا كور هنالك -كما قال - ولا ظهر، وإنما هى استعارة تمثيلية، استعيرت فيها صورة محسوسة لصورة معقولة.

ويبدو أنه لم يقصد كلمة (الكور) وحدها حتى تكون استعارة مفردة، ولكنه يومىء بذلك إلى الكور واستقراره على ظهر الناقة، أو البعير، يريد الشاعر أن يقول إنه نشأ أبيا عزيزا، لم توطأ عريكته، أو تذل نفسه، يقال ديث الأمر لينه، وديث الطريق وطأه، وديثه الدهر حنكه وذلله[٣] والعريكة هى النفس[٤].

ومن ذلك النوع أيضًا ما صرح به من استعارة حفر البئر، وخسفها، واستخراج الماء منها لتبصير الشعراء بمعانى الشعر، وفنونه، وارتياد آفاقه، وضروبه فقد قال: «وفى حديث عمر أن العباس سأله عن الشعراء فقال امرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين

---

(١) المرجع نفسه بتصرف قليل: ١٠٤.
(٢) لسان العرب: ٥/٣٩٥٣ (كور).
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢/١٤٦٥ (ديث).
(٤) ينظر المصدر نفسه: ٤/٢٩١٢ (عرك).

الشعر فافتقر عن معان عور[1] أصح بصر أى أنبطها وأغزرها لهم من قولهم خسف البئر إذا حفرها فى حجارة فنبعت بماء كثير، يريد أنه ذلل لهم الطريق إليه، وبصرهم بمعانى الشعر، وفنن أنواعه، وقصده فاحتذى الشعراء على مثاله، فاستعار العين لذلك»[2].

فصرح بالفعل (استعار) فى قوله (فاستعار العين لذلك) وهذا الكلام برمته مأخوذ من كلام ابن الأثير حول هذه الاستعارة[3] ويبدو من سياق الكلام أن الاستعارة ليست فى كلمة (عين) وحدها كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هى فى حفرها، واستخراج الماء منها بغزارة، وقد استعيرت تلك الصورة المحسوسة لفتح الطريق أمام الشعراء لارتياد معانى الشعر، والتطرق إلى أغراضه المختلفة، والتجوال فى آفاقه الرحبة الفسيحة، وهى صورة معقولة.

ثانيتها: أن يصرح بأنها تشبيه وذلك - كما هو معروف بحسب الأصل - ومن ذلك ما أشار إليه من استعارة صورة استخراج القراد من البعير حتى يأنس وينقاد لمقرده، لصورة من يخادع إنسانا ويلاطفه حتى يستسلم لرأيه، ويركن إليه فقد قال: «.. والقراد معروف واحد القردان، والقراد دويبة تعض الإبل... وتقول منه قرّد بعيرك أى انزع منه القردان، وقرده ذلّله، وهو من ذلك؛ لأنه إذا قرد سكن لذلك، وذل، والتقريد الخداع مشتق من ذلك؛ لأن الرجل إذا أراد أن يأخذ البعير الصعب قرده أولا.. ويقال فلان يقرد فلانا إذا خادعه متلطفا، وأصله الرجل يجىء إلى الإبل ليلا ليركب منها بعيرا فيخاف أن يرغو فينزع منه القراد حتى يسأتنس إليه ثم يخطمه، وإنما قيل لمن يذل قد أقرد لأنه شبه بالبعير يقرد أى ينزع منه القراد فيقرد لخاطمه، ولا يستصعب عليه»[4].

فعبر عن تلك الاستعارة بالفعل (شبه) فى قوله (لأنه شبه بالبعير يقرد...) وواضح أنها تمثيلية استعيرت فيها صورة البعير وتقريده، وهى محسوسة، لصورة مخادعة الرجل ومداهنته، وهى معقولة.

---

(١) فى هامش لسان العرب: ٢/١١٥٨ (خسف). فافتقر إلخ فسره ابن الأثير فى مادة (فقر) فقال: أى فتح عن معان غامضة.

(٢) لسان العرب: ٢/١١٥٨ (خسف).

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٢/٣١. (٤) لسان العرب: ٥/٣٥٧٦ (قرد).

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة جفاف الأقلام، وطى الصحف للفراغ من كتابة المقادير فى اللوح المحفوظ فقد قال: «وقد جف الثوب وغيره يجف وفى الحديث جفت الأقلام، وطويت الصحف، يريد ما كتب فى اللوح المحفوظ من المقادير، والكائنات، والفراغ منها تشبيها بفراغ الكاتب من كتابته، ويبس قلمه»(١).

فقد استعيرت صورة فراغ الكاتب من كتابته، وطيه أوراقه التي يكتب فيها، وجفاف قلمه من مداده. لصورة الفراغ من كتابة المقادير فى اللوح المحفوظ، وقد أطلق عليها صاحب اللسان كلمة (تشبيه) فى قوله (.. تشبيها بفراغ الكاتب...) وذلك باعتبار أصلها الذى بنيت عليه.

ومن هذا النمط أيضًا ما أشار إليه من استعارة هيئة من يقوم بعجن العجين، لاعتماد المصلى على يديه عند قيامه من السجود فقد قال: «.. وفى حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان يعجن فى الصلاة فقيل له ما هذا؟ فقال رأيت رسول الله ﷺ يعجن فى الصلاة أى يعتمد على يديه إذا قام كما يفعل الذى يعجن العجين»(٢).

واضح أن هذا مجاز مركب - أعنى استعارة تمثيلية - استعيرت فيه هيئة العاجن المعهود، لهيئة المصلى الذى يعتمد على يديه عندما يقوم من سجوده، وكلتاهما هيئة محسوسة، وغنى عن البيان أن (الكاف) فى قوله (.. كما يفعل العاجن) هى كاف التشبيه.

ولولا حمل هذا الكلام على المجاز، لوقف القارىء أمامه مدهوشا عاجزا عن فهمه، إذ كيف يعجن الرسول ﷺ فى الصلاة؟ فلله در العلماء الذين بينوا، ووضحوا، وأناروا الطريق (ولله در العلم ومن به تردى، وتعسا للجهل ومن فى أوديته تردى).

ومن هذا القبيل ما أشار إليه من استعارة بيض الطائر، وملازمته عشه؛ لاحتضان بيضه، ثم أفراخه لملازمة الشيطان أهل العراق، واقترانه بهم كما جاء فى كلام عمر بن الخطاب -رضى الله عنه - فقد قال صاحب لسان العرب:

---

(١) لسان العرب: ١/٦٤١ (جفف).

(٢) المصدر نفسه: ٤/٢٨٢٩ (عجن). وينظر النهاية فى غريب الحديث والاثر: ٣/١٨٨.

« . . ويقال أفرخت البيضة إذا خلت من الفرخ، وأفرختها أمها، وفى حديث عمر يا أهل الشام تجهزوا لأهل العراق، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ، أى اتخذهم مقرا ومسكنا لا يفارقهم كما يلازم الطائر موضع بيضه وأفراخه »[١].

ومن البدهى أن الشيطان لا يبيض، ولا يفرخ، وإنما يلازم، ويوسوس، ويسوّل.

ويفهم من كلام صاحب اللسان الذى نقله عن ابن الأثير [٢] - رحمهما الله - أن فى كلام عمر - رضى الله عنه - استعارة تمثيلية استعيرت فيها صورة الطائر الذى يجثم فى عشه فوق بيضه، لصورة الشيطان الذى يقترن بأهل العراق، ويلازمهم ملازمة الظل لصاحبه.

وقد أشار إلى هذه الاستعارة بكاف التشبيه فى قوله (. . كما يلازم الطائر موضع بيضه . . ».

وصورة المستعار له، وهو الشيطان، وبيضه، وتفريخه صورة وهمية بمعنى أنه لا يرى بالعين، وإن كان وجوده حقيقة مقررة[٣].

ثالثتها: أن يصرح بالاستعارة والتشبيه معا، وهو يلقى الضوء على استعارة تمثيلية فقد قال: « ذر الشيء يذره أخذه بأطراف أصابعه ثم نثره على الشيء . . . والذّرّ مصدر ذررت وهو أخذك الشيء بأطراف أصابعك تذره ذر الملح المسحوق على الطعام، وذررت الحب والملح والدواء أذره ذرا فرقته »[٤].

وهذا الذر والتفريق على سبيل الحقيقة، ويتابع صاحب اللسان كلامه قائلا: « . . وقد استعاره - أى الذر - بعض الشعراء للعرض تشبيها له بالجوهر فقال:

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور

ليم هنا إما أن يكون مغيرًا من لثم، وإما أن يكون فُعل من اللّوْم لأن القلب إذا نهى، كان حقيقا أن ينهى »[٥].

---

(١) لسان العرب: ٤ / ٣٣٧٢ (فرخ).
(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣ / ٤٢٥.
(٣) ينظر البلاغة فنونها وأفنانها - د. فضل حسن عباس: ٢ / ٢٦، ٢٧.
(٤) لسان العرب: ٣ / ١٤٩٤ (ذرر).
(٥) المصدر نفسه والموضع.

وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت فى موضع آخر لإبانة معنى الفطور التى التأمت فى القلب فقال: «فطر الشيء يفطره فطرا فانفطر شقه، وتفطر الشيء تشقق... وأنشد ثعلب:

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور

وسيف فطار فيه صدوع وشقوق...»[1].

الاستعارة - كما وضحها - فى قيام صاحبة هذا الشاعر بشق قلبه، ونثر حبها، وهواها فى أنحائه، وجنباته فبُلَ قلبه من سقمه، والتأم ما فيه من شقوق، وجروح، وقروح. فأصل هذه الاستعارة تشبيه صورة معقولة بمحسوسة، أو كما قال تشبيه العرض بالجوهر.

المستعار منه صورة نثر الشيء المحسوس كالملح وغيره، والمستعار له صورة ذرّ الهوى وتفريقه على قلب المحب المشقوق، وصورة المستعار له أعنى شق القلب، ونثر الهوى عليه صورة خيالية افتراضية، لا وجود لها فى عالم الواقع، يقصد منها الشاعر المبالغة فى حبه، وهواه. يؤكد ذلك قوله بعد هذا البيت:

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فبادیه مع الخافي يسيرُ

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور[2]

رابعتها: أن يومىء إلى الاستعارة التمثيلية بأنها (مثل) كاستعارة صورة من يعض على الشيء بنواجذه، وجميع فمه، لصورة المتمسك بالإسلام، الحريص على العيش فى رحابه، فقد قال: «العض الشد بالأسنان على الشيء... وفى حديث العرباض وعضوا عليها بالنواجذ هذا مثل فى شدة الاستمساك بأمر الدين؛ لأن العض بالنواجذ عض بجميع الفم، والأسنان وهى - أى النواجذ - أواخر الأسنان»[3].

ظاهر من سياق الحديث أن فيه استعارة تمثيلية شبهت فيها صورة معقولة بصورة محسوسة، أو إن شئنا الدقة استعيرت فيها صورة محسوسة لصورة معقولة، وقد سماها صاحب اللسان (مثلا) اتباعا لابن الأثير[4] الذى ينقل عنه، ويرتضى بيانه

---

(١) المصدر نفسه: ٥/٣٤٣٢ (فطر). (٢) زهر الآداب: ١/٢١٢.

(٣) لسان العرب: ٤/٢٩٨٦ (عضض).

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر: ٣/٢٥٢.

وآراءه. وهى حرية، وخليقة بهذه التسمية؛ لأن تلك الاستعارة إذا ذاعت، وشاعت، واشتهرت سميت مثلا(١).

وما قيل فى هذا الحديث هو أحد قولين ذكرهما صاحب المجازات النبوية عندما قال: «... وقد يجوز أن يكون المراد الأمر بلزوم سنته - عليه الصلاة والسلام - كما أن العاض بنواجذه على الشيء الذى لا يتأتى فيه القطع يلزمه أشد اللزوم..»(٢).

ومن هذا اللون ما ذكره من استعارة محاذاة القذة بالقذة وجعلها على قدرها عند قطعهما معا، لمتابعة أمة محمد ﷺ لبنى إسرائيل، وحذوهم حذوهم، واقتفائهم آثارهم فقد قال: «القذاذات ما سقط من قذ الريش ونحوه وفى الحديث أنه ﷺ قال أنتم يعنى أمته أشبه الأمم ببنى إسرائيل تتبعون آثارهم حذو القذة بالقذة يعنى كما تقدر كل واحدة على قدر صاحبتها وتقطع، وفى حديث آخر لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة قال ابن الأثير يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان...»(٣).

ففى الحديث استعارة تمثيلية استعيرت فيها صورة ضم الريش بعضه إلى بعض عندما يراد قطعه، لصورة اتباع أمة محمد ﷺ لبنى إسرائيل شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وقد عبر عنها بالمثل كما قال (... يضرب مثلا للشيئين يستويان...) وهى جديرة بإطلاق المثل عليها. كما سبق بيانه.

خامستها: ألا يصرح بها، أو يشير إليها بشيء ما، ولكنها تفهم من خلال تناوله لها، وعرضه إياها وذلك مثل استعارة صورة من يفتل للبعير فى غاربه وذروته حتى يستأنس بعد إباء ويسكن بعد جماح، لصورة من يخادع إنسانا آخر، ويتلطف به ويلاينه حتى يقنعه بما يريد فقد قال: «الغارب الكاهل من الخف -أى من الإبل - وهو ما بين السنام والعنق، ومنه قولهم حبلك على غاربك، وكانت العرب إذا طلق أحدهم امرأته، قال لها حبلك على غاربك أى خليت سبيلك فاذهبى حيث شئت... وفى حديث الزبير فما زال يفتل فى الذروة والغارب حتى أجابته عائشة إلى الخروج - يقصد الخروج إلى حرب على بن أبى طالب فى موقعة الجمل -أراد أنه مازال يخادعها

(١) ينظر - مثلا - الإيضاح: ١٥١ مع (البغية). (٢) المجازات النبوية: ١٢٥.
(٣) لسان العرب: ٥/٣٥٥٨ (قذذ). والنهاية فى غريب الحديث والأثر: ٤/٢٨.

ويتلطف حتى أجابته، والأصل فيه أن الرجل إذا أراد أن يؤنس البعير الصعب ليزمه وينقاد له جعل يمر يده عليه ويمسح غاربه، ويفتل وبره حتى يستأنس، ويضع فيه الزمام»[1].

وقد تناول الشيخ عبد القاهر الجرجانى هذه الاستعارة بأسلوبه الخلاب، وبيانه الساحر فقال: «... وتقول للرجل يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى الشيء قد كان يأباه ويمتنع منه مازال يفتل فى الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان منه فتل فى ذروة وغارب، والمعنى على أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء إلى البعير الصعب فيحكه، ويفتل الشعر فى ذروته وغاربه حتى يسكن، ويستأنس...»[2].

* * *

(١) لسان العرب: ٥/٣٢٢٩ (غرُب). والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٣٥٠.
(٢) دلائل الإعجاز: ٦٨، ٦٩.